سر الخبز*

في قصائد الشاعر مصطفى عبد الله

سلام القريني

عمر الورود قصير
١٩٨٩م النهاية

السنة التي شيع فيها شاعرنا الشاب مصطفى إلى مثواه الأخير وسط حزن عَمَّ مدينة القنيطرة المغربية التي ترك هذا المعلم أثراً عميقاً في نفوس أهلها وأدبائها وفنانيها، الأمر الذي حدا بوزارة التربية الوطنية وثانوية التقدم وجمعية النادي السينمائي وجمعية أساتذة العلوم وجمعية التشكيليين، إلى إقامة حفل تأبيني لمناسبة أربعينية فقيد الأدب والكلمة الحرة .. ألقى في الحفل الكاتب المغربي إدريس الصغير كلمة قال فيها: (لمصطفى فن رفيع وخلجات كبد مرهف، يعشق الكلمة، ويغني للناس البسطاء، لم يبن لنفسه مسكناً فسكن قصائده، لم يطوق عنقه بربطة عنق، كان يكره الاختناق، يرتشف الشاي الأسود ثم لا يتوقف عن الكتابة).

بعد التأبين:

كان للشاعر الكبير عبد الكريم كاصد أحد أصدقاء ومعاصري الراحل ومن الذين يربطهم ببعض أواصر متينة جداً، عاشوا معاً سنوات الجبهة (١٩٧٣-١٩٧٨م) من القرن الماضي وهم يمارسون مهنة التدريس في مدارس البصرة الفيحاء، ثغر العراق، ويجتهدون في البحث خلال ندواتهم العامة والخاصة عن أفضل الوسائل والسبل للوصول إلى مرحلة جديدة ذات أبعاد جوهرية تتضمن الارتقاء بالأدب وأدواته إلى جانب النضال

---

* نشرت في مجلة الشرارة العدد ٢٩/ السنة الثالثة/ ٢٠٠٨

هذه المدينة المضللة بالخضرة أن تلد فيها عقول امتلكت ناصية الوعي الطبقي المتقدم، فهم حقاً ورثة علي بن محمد صاحب الزنج وفهد والشبيبي والحيدري وسلام عادل وهندال.
وقد جسد مصطفى بأمانة عالية حياته بقصيدة بكائية رثى فيها والده عام ١٩٧٦م نستهل منها هذه المقاطع:

(أمسكت حياتك كالمنجل
وفتحت على الشجر اليابس ماء الجدول
في شمس القيظ
مكشوف الرأس
أسرعت تغطي الشجر الغض
لكنك حين يدق الرعد على الأبواب
تنسى بين يديك الخبز،
تلم الحشف المنثور على الدار
وتسد عيون السقف).

درس مصطفى في المدرسة المحمودية في أبي الخصيب وهي ذات المؤسسة التربوية العريقة التي تخرج منها رائد الشعر العربي الحر بدر شاكر السياب وأنهى دراسته الجامعية عام ١٩٧٢ حاصلاً على شهادة البكلوريوس في العلوم الطبيعية. وفي ذات العام أصبح عضواً في اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين.

الجذوة الشعرية

كتب الباحث رزاق عبود في الحوار المتمدن مقالاً طويلاً بعنوان (أبو الخصيب فردوس النخيل والحياة والشعر) جاء في بعض منه ما يلي:
(إن أشجار النخيل الباسقة والتي لا ينافسها في شموخها إلا أشجار اليوكالبتوس العملاقة وكأنها مظلة تحمي الفسائل والرمان والمانجو والتين من حرارة الشمس اللاهبة رغم كثافة الأغصان وتشابك الفروع والرطوبة الخانقة وكأنك في غابات الأمازون الاستوائية. في

لتحقيق حلم البشرية الأزلي بإقامة مجتمع خالٍ من الاستغلال تسوده قيم الحرية والعدالة الاجتماعية عبر أوسع البوابات الفكرية المقدامة المتمثلة في الحزب الشيوعي. فكان التزاماً أدبياً وأخلاقياً أن يبادر هذا المناضل الوفي بجمع قصائد رفيق دربه فكانت مهمة صعبة وشاقة تمخضت عن ولادة مجموعة رائعة حواها ديوان صادر عن دائرة الشؤون الثقافية وتحت عنوان (الأجنبي الجميل) ٢٠٠٤.

الذي كان يريده الشاعر الكاصد من متابعي شعر مصطفى إذا كانوا يريدون حقاً الوفاء له بأن يدرسوا أعماله بجدية فهي رسالة ضمّنها في مقدمة الديوان يقول فيها:

(إن إعادة الشاعر إلى الحياة هي المهمة .. وإذا كان هناك حاجة للتفكير من أجل فائدتنا نحن .. لا فائدته هو)

هذا هو المطلوب في الوقت الحاضر لأي دارس أو باحث يريد إحياء ذكرى مصطفى. وقد ساهم فعلاً الدكتور مجيد الراضي في عام ١٩٩٩م بإصدار ديوان لمصطفى عن دار المدى للثقافة والنشر وتحت عنوان مكاشفات ما بعد الرحيل، وقدّم لها بشكل جميل ودعا أيضاً المهتمين بمتابعة إرث مصطفى الغني. وقد خلا الديوانان من تقديم نبذة عن حياة مصطفى ونشأته التي أنتجت هذه الموهبة الشعرية.

البداية عام ١٩٤٧م

الاسم/ مصطفى

اسم الأب والجد/ عبد الله ملاّ حسين

اسم الأم/ عايدة

مكان وتاريخ الولادة/ ١٤٧٤ البصرة/ أبي الخصيب/ محلة جلاّب

ولد مصطفى الابن البكر في بيت طيني لأب فلاح وجميل ومن أم أنجبت بالتتابع أربعة أولاد وأربع بنات شكلوا لاحقاً أكبر كتيبة شيوعية مناضلة من اجل التحرر والتقدم، فكان فيهم المهندس والمدرس والطبيب والعامل فلا غرابة أن يمتد الخصب في

هذه المدينة المضللة بالخضرة أن تلد فيها عقول امتلكت ناصية الوعي الطبقي المتقدم، فهم حقاً ورثة علي بن محمد صاحب الزنج وفهد والشبيبي والحيدري وسلام عادل وهندال.
وقد جسد مصطفى بأمانة عالية حياته بقصيدة بكائية رثى فيها والده عام ١٩٧٦م نستهل منها هذه المقاطع:

(أمسكت حياتك كالمنجل
وفتحت على الشجر اليابس ماء الجدول
في شمس القيظ
مكشوف الرأس
أسرعت تغطي الشجر الغض
لكنك حين يدق الرعد على الأبواب
تنسى بين يديك الخبز،
تلم الحشف المنثور على الدار
وتسد عيون السقف).

درس مصطفى في المدرسة المحمودية في أبي الخصيب وهي ذات المؤسسة التربوية العريقة التي تخرج منها رائد الشعر العربي الحر بدر شاكر السياب وأنهى دراسته الجامعية عام ١٩٧٢ حاصلاً على شهادة البكلوريوس في العلوم الطبيعية. وفي ذات العام أصبح عضواً في اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين.

الجذوة الشعرية

كتب الباحث رزاق عبود في الحوار المتمدن مقالاً طويلاً بعنوان (أبو الخصيب فردوس النخيل والحياة والشعر) جاء في بعض منه ما يلي:

(إن أشجار النخيل الباسقة والتي لا ينافسها في شموخها إلا أشجار اليوكالبتوس العملاقة وكأنها مظلة تحمي الفسائل والرمان والمانجو والتين من حرارة الشمس اللاهبة رغم كثافة الأغصان وتشابك الفروع والرطوبة الخانقة وكأنك في غابات الأمازون الاستوائية. في

مثل هذه البيئة لابد أن يتهيأ شعراء كباراً وصغاراً بالفصحى والعامية، بدر شاكر السياب، سعدي يوسف، عبد الدايم ناصر وغيرهم العشرات سحقتهم الغربة والتهجير والقمع واقتلاع النخيل ومنهم شاعرنا الراحل مصطفى عبد الله)

في جلاّب ..

وأشجار الدفلى المصطفة على نهرها الغافي الذي يزحف إليها فجراً قطار البط وهواءها البارد العليل وتلك الأرض المعطاء شكلت خلاصة روحه الشفافة الخجولة عبر مخزون ضخم لأسماء وأزقة وكائنات متحركة برجالها ونسائها وأضرحتها وكل من ترك بصمة في أبوابها التاريخية (باب الطويل وباب ميدان وباب سليمان واللباني وجيكور. هنا وهناك أرخ مصطفى ماضيها وحاضرها واستقرأ مستقبلها. ولم يأت ذلك من فراغ رغم وجود الموهبة التي صقلتها يد كل من:

أولاً/ الوعي الطبقي المبكر والمتبلور إلى فعل حقيقي باقتران النظرية بالعمل عبر الانتماء إلى صفوف الحزب الشيوعي. إلى جانب وجود شخصية المناضل القيادي فاضل حميد (العمر المديد له) آنذاك وهو لم يزل في الثانوية الذي ترك وجوده أثرا كبيرا في حياة مصطفى الشعرية والثورية .. حيث يقول عنه في القصيدة التي أهداها لفاضل:

(كل منا يتذكر رائحة الآخر
وينسى رائحته..)

ثانياً/ الجيل الذي كان معاصراً لمصطفى في جلاّب، القرية، من المثقفين، وعلى رأس القائمة الروائي المتألق إسماعيل فهد إسماعيل وزميله سعد ناصر ومجيد عبد الرزاق وعدنان دكسن واحمد عبد الصمد .. كانوا شعلة في المطالعة والقراءة ونثر وكل أعمال الكتاب الروسي العالمية ومنابع الشعر العالمي فتح نافذة واسعة أمام شاعرنا الراحل .

ثالثاً/ الخطوة التالية وهي الأهم هي انتقال سكناه إلى مدينة البصرة / منطقة الكزارة وانخراطه كلياً في العملية الثقافية والسياسية والتي أحدثت قفزة نوعية بمسيرة عمله الأدبي وتحديداً في عام ١٩٧٣م وما بعدها حيث كنا أنا وشقيقه الراحل وليد والشاعر محمود

بدر عطية المقيم حالياً في السويد نسترق السمع إلى جلساته الفكرية والأدبية التي يحضرها أدباء البصرة منهم عبد الجليل مياح وخضير عبد الأمير وجاسم العايف وكاظم العبد وآخرين .. وتدور حوارات معمقة حول الواقعية والواقعية الاشتراكية والجدل الدائر حول كتاب المفكر المجري جورج لوكاش. إلى أن جاء عام ١٩٧٤م حيث الأمسية التي أقامها نادي التعارف البصري الملغوم طيلة سنواته السابقة برجال الأمن وأزلام النظام البعثي الفاشي ليلقي فيه مصطفى رائعته الشعرية الواعدة بولادة شاعر كبير والتي تحت عنوان (دعوة متولي عطية لحمل السلاح بعد انتهاء القتال) وليدخل اسم مصطفى في سجل المبدعين حيث يقول في مطلعها:

(تواعدني، مصر، تكبر
فقد ألبستني الشعارات، آخر أنبائها
لا تخف إن مصر الجميلة ألقت مظلتها...)

رابعاً/ عام ١٩٧٨ .. بداية الهجمة الدموية الغادرة للبعث الفاشي التي أجبرت شاعرنا على الرحيل والغربة .. غاظهم أن يروا الثقافة وهي تزدهر .. خافوا أن تتحول عيون الناس إلى واقعهم الحقيقي الذي بدو فعلاً يبصروه .. قال مصطفى عن ذلك:

(هكذا تعرفين
لم تجلس الحجارة لتصير تمثالاً خالداً
ويصعد هندال إلى المشنقة).

ترك مصطفى حملاً وديعاً في حضن جدته، ابنه (بسيم) الذي لم يره حتى وفاته.
ربما سيحدثه (يمان) أخوه من زوجة أبيه المغربية لو التقيا عن والدهما الشاعر.

أهم أعماله:

١– مسرحية بعنوان (١٠+١)
٢– ديوانيين مطبوعين.
٣- كتابة ثلاثة سيناريوهات لصالح المنظمة الإسلامية للتربية والتعليم والعلوم الثقافية.

٤- كتابة سيناريو فيلم رسوم متحركة بعنوان (يدا الصياد) بالاشتراك مع إدريس الصغير الكاتب المغربي.
٥- سيناريو آخر بعنوان (كتاب فاس في حب الناس) والذي قام بإخراجه المخرج العراقي كاظم الصبر.
٦- سيناريو (أمس الاثنين وغداً الثلاثاء) بالاشتراك مع أمين عبدالله وإدريس الصغير.

سر الخبز (الحدث)

الذي لفت انتباهي عند قراءتي للدواوين الشعرية لمصطفى عبد الله خصوصاً الأجنبي الجميل كانت عدد القصائد فيه (١١٨) قصيدة ولم اعتمد المكاشفات لوجود قصائد مكررة. فقد لاحظت أن القصائد التي يذكر الشاعر فيها الخبز بلغت (٣٢) قصيدة وثلاثة تحمل عنوان ليل الخبز وخبز التموين وخبز البترول. عنه يقول مصطفى:

(خبز التموين
صديق الآتين إلى الدنيا
بعرائض).

في عام ٢٠٠٠ وصلني ديوان محمود بدر عطية من ستوكهولم (الشمس وبيوت الطين) وجدت فيه قصيدة خبز التموين أيضاً يقول فيها:

(مع صوت الديك الواقف فوق صديقه (أم العوف)
يتلمس سالم قطعة نقد تحت وسادته
منطلقاً مع تمجيد الجد سمير
مندفعاً نحو المخبز
فأصداء نعال الحارس وصرخته المعهودة
تبقي سالم مشدوداً
لرائحة خبز التموين).

القصة:

كان هناك مخبز وحيد في أبي الخصيب يعود لرجل ضرير اسمه (سيد محمد) يبيع أرغفة خبز التموين بأربعة فلوس، لا يأكل هذا الخبز إلاّ الفقراء وهم وحدهم الذي يتسابقون لشرائه والذهاب إليه قبل تمجيد الجد سمير وأذانه في برد الشتاء وقيض الصيف ليجدوا مكاناً في أول الطابور. وكانت قصة الخبز واحدة من أكبر معاناة الشاعر وإخوانه الذين يغالبهم النعاس وخوفهم من مطاردة ونباح الكلاب في تلك الليالي المظلمة.

يقول عن ذلك في قصيدته المألوف (٢):

(نسرع بالخبز
نسرع قبل اليقظة والنوم)

وفي قصيدة الفجر يقول:

(جلس الفجر
فوق جناح العصفور الملحوم على الأسلاك
منتظراً خبز التموين)

وفي قصيدة الحطاب يقول:

(وأخذه النعاس بعيداً
عن الخبز وأيام الصغار)

الخبز في قاموس اللغة:

جاء في صحاح المختار أن الخبز معروف والخبز بالفتح المصدر، وقد خبز الخبز ورجل خابز أي ذو خبز، والرغيف من الخبز وجمعه أرغفة.

لقد عرف الإنسان القديم هذه الكلمة المقدسة التي من اصل سومري فقد وردت في نصوص عديدة خصوصاً في ألواح الأساطير البابلية والسومرية، فقد جاء في كتاب عشتار ومأساة تموز هذا الدعاء السومري الذي كتب إلى الإلهة أنانا ويرد فيها الخبز الذي عرفته البشرية ما قبل الميلاد.

(أيتها السيدة إن ثدييك هما حقلك
وحقلك الواسع الممتد، الذي يسكب النبات
وحقلك الذي يسكب الحنطة
والماء منقذفاً من العلى للمولى
والخبز من العلى).

الحقيقة إن إنسان بلاد ما بين النهرين قد أدرك مبكرا أهمية هذا الغذاء، وإن الحياة مرهونة به وبالتكاثر، ففي ملحمة كلكامش جاء الخبز على لسانه باعتباره أهم الهدايا التي يقدمها للإلهة عشتار قائلاً:

(ماذا عليّ أن أقدم لو تزوجتك
هل أقدم الزيت والكساء للجسد؟
هل أقدم الخبز والطعام؟!).

إن الأسطورة قد أوحت إلى الشاعر الرائد بدر شاكر السياب كما أوحت لشاعرنا مصطفى، فالأول قد استخدمها وتأثر بها حيث نجده أيضاً يؤكد على أهمية الخبز بالنسبة للإنسان ويضعه في المرتبة اللائقة حيث يقول:

(تموز هذا ، التيس
هذا وهذا الربيع
يا خبزنا يا التيس
انبت لنا الحب وأحيي اليبس)

ونجده أيضاً يطلقه نيابة عن صوت الجائعين النائمين على آلامهم:

(ومن هذه الخمرة التي تشربونها
ولحمي هو الخبز الذي نال جائع).

هنا يربط السياب الخبز مع قصة المسيح يسوع في العشاء الرباني الذي أصبح فيما بعد بالعشاء المقدس حيث يتحول الخبز والخمر عنده إلى صيد السيد المسيح ودمه يحلان فيه. ليتدفق ويملأ الأرض خبزاً وعطاء..

(النهر الاغر فاض ليطعم كل فم
خبز الألم).

الخبز بالنسبة إلى مصطفى بناء الوحدة المتماسكة بين الشكل والمضمون وربطه بشكل جدلي بالواقع عبر وعي متقدم ليثير فينا قضية متقدمة تأخذ أبعادها الفلسفية بمستوياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ولتكون لاحقاً منطلقاً لفعل ثوري ملتزم بلا مباشرة عبر صيغ فنية مبتكرة تحدث شرخاً في الأنظمة الاستغلالية المستبدة..

ففي قصيدة (ارق):

(نطالب الآخرين
بالتوجه إلى الحدائق
والجلوس مع الخبز..)

والخبز في قصيدة (هو):

(تعرق الخبز المتسع كالحرب
والناس المسرعين كالعربات ..
الكل معني بقضية العدالة)

يذكر مصطفى في قصيدة (الخارطة)

تقديم
(العمال ، الطلبة ، الموظفون ، الأطفال
النساء ، كلهم تعرضت ضمائرهم للإبادة
منذ وقف هؤلاء بينهم والخبز).

ماذا يعني ذلك لمصطفى من الخبز الذي قرأه بعين تفكيكية فاحصة للنص القديم باعتباره أحد المواد الأساسية للحياة المرتبطة بالإنسان رابطاً القديم بالجديد، فليس عبثاً عندما قال أحد العظماء (أعطني خبزاً ... أوليس بالخبز وحده ...) أدرك أن الفقر والحرمان هما المحركان الأساسيان لروح الثورة والخبز أحد أدواته.

الخبز هو الناس الفقراء ... المحرومين ... العراة الذين ما برحوا يرفعون الفتات يقبلونها ويضعوها على جباههم ثم ينتخبون مكانا يعتقدون انه نظيف.
هذا السر الذي قدسه ورفعه ناسه إلى أعنان السماء ليحارب به الطغاة.
طوبى لك يا مصطفى التي تقول لهم جميعاً ولفاضل حميد الشيوعي.
من قصيدة العاشق:
(أفكر بالأشياء التي تليق بي من أجلك
ليس بين يدي غير الرغيف الذي اشتهيته هذا الصباح
لكنهم هؤلاء المجهولين، امسكوا بين أسنانهم
حتى سقط الرغيف).

.....

المصادر

١ – مكاشفات ما بعد الرحيل /دار المدى للثقافة ١٩٩٩
٢- الأجنبي الجميل /دار الشؤون الثقافية ٢٠٠٤
٣- الشمس وبيوت الطين /محمود بدر عطية ٢٠٠٠
٤- صحاح المختار /لمجموعة مؤلفين
٥- الأسطورة من شعر السياب /د.فاضل عبد الواحد
٧- ملحمة كلكامش / العلامة طه باقر.